# القوة الثورية للعدوان الطيب

حكايــة مصير الملك تنتالوســ ابن الألة زيوســ. كان تنتالوس ملك مدينــة سيبيلوس في أدنى آسيــا، وكان أن أغضب الألهــة بتقديمه ابنه قربانــا على مائدة حفل عشــاء فعوقب على فعلتــه أن يعيش أبد الدهر محبطــا. غمرته المياة حتى رقبته وكان كلمــا أحنى رأسه ليشرب تجف الميــاه كلها؛ كانت تتدلى من حوله الفاكهــة لكن ما إن يمد يده ليقطفها حتى تعصف الريح بالأغصان وتحملها بعيدا عن يده. كان بوسع الآلهة أن تزيلــه عن وجه الأرض إنما فضلت له أن يشقى أكثر بجعل ثروات لم تسمع به أذن تتراءى أمام ناظريه ولا يستطع إليها سبيلا.

على هذا النسق يعرض اليوم الاتحاد الأوروبي قوته. مملكة سيبيلوس القديمــه هي اليوم تركيــا الحديثة، وخلفاء تنتلوســ في الحكومة التركية اليــوم قادرون على معرفة مصيره. لقــد قدمت تركيا طلب الأنضمام إلى الاتحاد الأوروبي في عام 1963 وعلى مدى أربعة عقود كان أمل الأنضمام متدليا أمامها ولكن يزاح بسبب فشلها؛ فانتهاكات حقوق الإنسان والقيود علــى الصحافــة واضطهــاد الأقليــات وتخلــف الأقتصاد التركــي أعطى الحكومــات الأوروبية أسبابا لسحب حافــز العضوية. ولكن الأنضمام إلى النــادي الأوروبــي في تركيا تحول الآن إلى حلم وطنــي يلتف حوله الجميع -علمانيون والإسلاميون وأناضيليون وكرد وأرمن- ويعد بحياة أفضل.

على مدى السنوات الأربع وافق البرلمان التركي على رزمة من التعديلات الدستورية لتكون متوافقة مع المعايير الأوروبية. وعندما يتحدث رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان إلى زملائه في بروكسل، يتفاخر بإلغاء عقوبة الأعدام وهيمنة الجيش على المحاكم والتضييق على حرية التعبير، والتحدث عن جعل الميزانية العسكرية خاضعة لسيطرة المدنيين لأول مرة منذ تأسيس تركيا الحديثة وعدم تسامحه بالمطلق مع أي نوع من التعذيب في السجون التركية. لقد ضمن أردوغان إطلاق سراح الناشطين الأكراد من السجون وسمح لتلفزيون الدولة الرسمي (TRT) ببث برامج باللغة الكردية وبلغات بعض الأقليات الأخرى مثل البوسنية والعربية. لقد تخلى أردوغان عن ثلاثين سنة من العناد بخصوص المسألة القبرصية وأزال قرونا من الأرتياب بين اليونان وتركيا بدبلوماسية ماهرة، لدرجة أن أشد منافس لتركيا في الماضي تحول إلى أبرز داعم لانضمامها لعضوية الاتحاد الأوروبي. هذه الثورة وراءها سبب واحد فقط: الرغبة التركية بالانضمام إلى الإتحاد.

## العدوان الطيب

يعد تأثير أوروبا على تركيا أفضل برهان على العدوان الطيب؛ فأوروبا بدلا من الأعتماد على التهديد بالقوة لتحقيق مصالحها اتكأت على التهديد بأن لا تلجأ للقوة واكتفت بسحب يد الصداقة والامل بانضمام تركيا للاتحاد. إن ما هو أسوأ من فرض بيروقراطية بروكسل والإصرار على التغيير وتطبيق التنظيمات وبدء خصخصة الدولة وامتداد النفوذ الأوروبي إلى كل منحى من مناحي الحياة السياسية

اليوميـة بالنسبة لدول مثل تركيا والبوسنة أو صربيا، أن تغلق بروكسل أبوابها في وجهها.

إن التبايـن بـين كيـف تعاملت أوروبـا وأمريكا مـع جيرانها يكشف الحقيقـة كاملـة. فالتهديد الـذي يواجهه كل منهمـا متشابها- تهريب المخـدرات وتدفـق أعداد كبيرة مـن اللاجئين عبر الثغـرات الحدودية وشبـكات من الجريمة الدوليـة- لكن التعامل مع التهديـد كان مغايرا تمامـا. لقد أرسلت الولايات المتحدة جيوشـا إلى أراضي جيرانها أكثر مـن خمس عشـرة مرة خلال الخمسـين سنة ولكن العديـد من الدول المحيطة بها بالكاد تغيرت- بل إن تلك الدول ما إن تخرج من أزمة حتى تقـع في غيرها مغرقة القوات الأمريكيـة في أغلب الأحيان في مشاكلها. وبالرغـم مـن أن الظروف الخاصـة لكل من تلك الـدول مختلفة إلا أن قصة الفشل الأمريكـي في كولومبيا تبقى مثالا مغايرا للنجاح الأوروبي في تركيا والبلقان.

إن أمريـكا منخرطـة بكل ثقلهـا في كولومبيا؛ لقـد أعطت كولومبيا 1.3 بليـون دولار كمساعـدات طارئة ذهب ثلاثة أرباعهـا كمساعدات للجيش والشرطة. وتمول الولايات المتحـدة تدريبات القوات الحكومية الكولومبيـة وكذلـك أعطتها ثمـاني عشرة طائرة من نـوع بلاك هوك واثنتـين وأربعين مروحية من نوع هيوي، وأعطت أيضا الحكومة معدات تجسس ومراقبة ضرورية لاستهداف محاصيل الكوكايين والمناطق التي يسيطـر عليها الثوار. وهـذا التدخل الأمريكي هو جزء من الحرب على المخدرات ومن ثم ينفـق شطر كبير من المساعدات غير العسكرية على

دعم استبدال محاصيل الكوكايين بغيرها وذلك بهدف إزالة الحافز الذي يدفع المزارعين الكولومبيين لزراعة الكوكايين لإشباع الطلب عليه في أمريكا الشمالية وأوروبا. هذه الأموال هي جزء من برنامج أوسع «خطة كولومبيا» وقيمته 7.5 بليون دولار والذي تأمل الحكومة الأمريكية بواسطته من إبعاد كولومبيا عن الطريق المظلم والمؤلم الذي قادتها إليه الحرب الأهلية، والاعتماد على إنتاج الكوكايين؛ رغم ذلك كان السلام بعيد المنال.

إن تورط الولايات المتحدة في «خطة كولومبيا» يعطي مثالا قويا على بعض الأسباب وراء فشل السياسة الأمريكية الخارجية في تغيير الوضع القائم؛ فالولايات المتحدة الأمريكية تسعى عادة وراء أهداف قصيرة الأمد تخدم على ما يبدو بجلاء مصالحها الخاصة مثل تخفيض نسب تهريب المخدرات واستقرار الحكومات الصديقة وتستخدم أيضا قواتها العسكرية الضخمة لتحقيق ذلك إما بإعارتها إلى وكلاء محليين أو بإستخدامها مباشرة على شكل تدخل عسكري.

الرد الأوروبي على تلك المشكلات، بالمقابل، يلوّح بإمكانية اندماج دول مجاورة له إما بحلف شمال الأطلسي (الناتو) أو الاتحاد الأوروبي ومن ثم يحاول تقريبها أكثر إلى القوانين المتبعة والممارسات المؤسساتية للاتحاد الأوروبي. والإتحاد الأوروبي بإبقائه على هذا الأحتمال يكون عمليا يعرض على جيرانه عرضا لا يمكن أن يرفضوه. ولكن عندما يقبل الجيران هذا العرض ويطلبوا من الاتحاد الألتزام به تصبح تلك الدول مصدر خير للأوروبيين. وهذا ما تعبر عنه أروع تعبير إحدى قصص لافونتين.

في أحد الأيام كان لأحد المزارعين ثلاثة أولاد كسالى. وبينما هو وزوجته يكدحان ليلا ونهارا للاعتناء بكرم عنبهما كان الأولاد يرفضون أن يحركوا أصبعا. وعندما حضر الموت المزارع قال لأولاده على فراش الموت إنه طمر كنزا في كرم العنب. فعمد أولاده إلى حفر الكرم شبراً شبرًا ليجدوا كنز الذهب. ولكن بعد سنوات من البحث لم يجدوا المكان الذي خبأ والدهم فيه كنز الذهب. ولكن حفرهم للأرض أحيا كرم العنب، وسرعان ما أنتج الكرم محصولا وفيرا جعل من الأولاد الكسالى أغنياء من حيث لا يدرون بسبب عملهم المتعب.

هذه القصة تشرح لحد كبير التأثير الإيجابي للاتحاد الأوروبي. فكنز الأنضمام للاتحاد الذهبي يشكل حافزا قويا يكفي لتشجيع الدول الراغبة على القبول بالدخول في عمليات مؤلمة من الإصلاح لا بد منها لكي تصبح مزدهرة وحرة، وعندما تصبح تلك الدول مزدهرة وحرة تصبح مصدر منفعة وقوة للاتحاد وليست عبئًا عليه.

## النطاق الأوروبي

أصبح العدوان الطيب نموذجا ينتهجه الاتحاد الأوروبي في تدخلاته في مناطق مختلفة من العالم. لقد شُجعت روسيا على توقيع بروتوكل طوكيو (لحماية البيئة) عبر ربط المساعدات المقدمة لها بالمصادقة على البروتوكول. وكذلك تشجعت الولايات المتحدة على القبول بدخول الأمم المتحدة إلى العراق وذلك بعد رفض ألمانيا وفرنسا المشاركة من دون مظلة المنظمة الدولية؛ كما تشجعت إيران على توقيع بروتوكل

وكالة الطاقة الذرية الدولية للحد من انتشار الأسلحة النووية بعد تهديد الاتحاد بالامتناع عن توسيع التجارة مع النظام الإسلامي في طهران. لقد رأينا في الفصل السابق كيف أثرت الثمانين ألف صفحة من القوانين التي طورها الاتحاد منذ إنشاء السوق الأوروبية المشتركة في عام 1975، على كل شيء بدءا من تصنيف الجينات الوراثية إلى حقوق الإنسان وكيف سمح ذلك لأوروبا أن تمد تشريعاتها وقيمها إلى كافة أنحاء العالم من أستراليا إلى زامبيا في أفريقيا. لقد فعلت أوروبا ذلك بربطها الدخول إلى اسواقها بإلزامية الأنصياع إلى أعرافها وعاداتها. إن قوة سوق الاتحاد الأوروبي لم تمكن الأوروبيين فقط من إجبار دول كبيرة مثل الولايات المتحدة على التراجع في قضايا التعرفة الجمركية غير العادلة على الفولاذ ومنتوجات أخرى بل سمحت للاتحاد أن يفرض معايير على التنظيمات العالمية.

لقد اختارت الآلاف من الشركات أن تتبنى المعايير الأوروبية بدلا من المعايير المحلية لكي تتكمن من الدخول إلى السوق الأوروبية، وحتى الشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات الضخمة أجبرت على أن تحذو حذو الأوروبيين على الأقل في ثلاثة ميادين: الأندماج والحيازة والغذاء المعدل وراثيا وسرية المعلومات. لقد كان كافيا أن يحول التهديد بحظر الدخول إلى السوق الأوروبية دون إتمام صفقة الأندماج بين أكبر شركتين صناعيتين، إلكتريك جنرال وهنيول، وتبلغ قيمتها اثنين وأربعين بليون دولار. وهذا مثل من بين قائمة طويلة من الأمثلة بما فيها صفقات الأندماج بين الشركات الآتية أسماؤها: وورنر وأيي إم

أي، وسبرنت وشركة وورلد كومب، وإم سي أي وشركة وورلد كومب. إن التعطش لدخول السوق الأوروبية أدى إلى قبول عدة شركات امريكية للتنظيمات والترتيبات التي وقفت ضدها وحاربتها على أرض وطنها.

على صعيد الغذاء المعدل وراثيا أجبرت الولايات المتحدة على تبني المعايير الأوروبية في تعريف الغذاء وذلك عندما ضغط مزارعو الولايات المتحدة على حكوماتهم في أعقاب حظر دخول لحوم أبقارهم إلى دول سوق الإتحاد. ونجد مثالا آخر في المعلومات السرية الخصوصية التي تتبع أوروبا بصددها تنظيمات أكثر تشددا والتي فرضت على الشركات الأمريكية بموجب بروتوكول «Safe Harbour» (الميناء الآمن).

رغم هذا كله لم تزل الموجة الثانية من التحول الأوروبي في بدايتها؛ لقد بدأ الاتحاد الأوروبي بتطوير نطاق نفوذ واسع يتجاوز حدوده إلى ما يمكن تسميته «نطاق النفوذ الأوروبي». هذا النطاق الذي يضم ثمانين دولة تشمل الاتحاد السوفياتي السابق وغرب البلقان والشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية وشبه الصحراء الأفريقية ويبلغ تعداد سكانه 20٪ من سكان العالم أجمع (انطر إلى الملحق).

إن الاتحاد الأوروبي هو أكبر شريك تجاري لهذا النطاق وأكبر مصدر للائتمان النقدي الدولي والاستثمارات الأجنبية المباشرة وكذلك أكبر مساهم في مساعدات التنمية. وتستخدم العديد من تلك الدول العملة الأوروبية الموحدة «اليورو» كمرتكز لسياسات تبادل العملات أو تستخدم اليورو كعملة موازية إلى جانب عملتها الوطنية.

لقد استغلت أوروبا هذا الأعتماد المذكور لتوقع اتفاقيات، مع كل هذه الدول، من شأنهـا أن تدخلها تحت مظلة الاتحاد القانونية والسياسية. هــذه الأتفاقيات التي تعزز الأندماج التجاري وتفتح حسابات رأس المال وتعــزز الأندماج التجــاري وتسهــل الأستثمارات المباشــرة، تضع أيضا معايــير سياسية بخصوص حقــوق الإنسان والحكــم الصالح والتعاون في مكافحــة الجريمــة والهجرة غــير الشرعية. الأكثر مــن ذلك أن كل المساعـدات الأوروبية ما عدا مساعدات الطــوارئ مربوطة بشروط لها علاقة بحقوق الإنسان وسياسة الهجرة والأمن والإصلاح الأقتصادي.

رغــم ذلــك كلــه لم تــزل الأمــور في بداياتهــا الأولى؛ إلى الآن فإن تأثــير توقعــات العدوان الطيــب أقل من تأثيراته الفعليــة على الأرض. هــذا العدوان الطيب ذو فاعلية أكبر مع الدول الصديقة- مثل الولايات المتحــدة وبلدان وســط أوروبا وشرقهــا- وأقل نجاحا مــع البلدان غير الصديقــة. ما تحاول أوروبا فعله هو تطويــر أدوات من العدوان الطيب لتطبيقه على بلدان ليست مرشحة لعضوية الاتحاد الأوروبي. هذا الأمر هو ما أحاول أن أشرحه في الفصل الثامن.

## النادي الأكثر حصرية في العالم

قــال غروشو ماركــس (Groucho Marx) قولته الشهيرة بأنه لن ينضــم لناد يجعلــه عضوا. لكن ما يجعل الاتحــاد الأوروبي مختلفا عن أي نــاد آخــر ويجعله يحظى بقوة جــذب للآخرين هو أنــه أكثر الأندية حصريــة. في هذا النادي تخطى أعضــاؤه كل الحواجز المفروضة أمام

التجـارة الحرة فتجاوز بذلك كل ما حققته التكتلات التجارية الأخرى؛ كذلـك أصبحت فيه المعايـير البيئية والاجتماعيه أعلـى من أي معايير أخـرى في أي مكان من العـالم. يضاف لذلـك أن القواعد الاقتصادية الملزمـة للأعضـاء في النـادي هي أكثر تشـددا من أي قوانـين وقواعد طبقتهـا الخزانـة الأمريكية أو البنـك المركزي اليابـاني. وأخيرا، فإن معايـير الديمقراطيـة وحقـوق الإنسـان وحمايـة الأقليـات في النادي الأوروبـي تسبق بأشواط كبيرة معايير أخـرى وضعتها منظمات أخرى كشرط للانضمام. هذه القواعد والمعايير لم تكن إلا نتيجة تفكير عميق وتأمل طويل ومن ثم تخطى العديد منها الإطار الأوروبي ليصبح معايير الدولية. وهكذا فإنه عندما تقدم دولة عظمى منافع لدول أخرى بشرط تغيير سلوكها فإن الدولة المتبرعة تلصق بها فورا تهمة الأستعمار، ولكن عندمـا يطلب ناد حصري مـن آخرين الألتزام بالقواعـد بقدر التزام أعضائـه فإن الطلب يعد عادلا ومبدئيا؛ هذا ما يجعل بالضبط الاتحاد الأوروبي مغريا لحد لا يقاوم.

إن قـوة أوروبـا التحويلية تنبع مـن قدرتها على مكافـأة المصلحين وحرمان المتلكئين من المنافع. لكن العدوان الطيب لا يؤتي أكله مع بلدان لا تريد الأنضمام لنـاد أعضاؤه ملتزمون بالقانون، ولذلك فإن التعامل معها قد يتطلب استخدام القوة.